**النصوص الشرعية المؤصلة للاستشراف والتخطيط المستقبلي**

**مقدمة: د. مجدي عبد العظيم إبراهيم**

إن استشراف المستقبل قد جاء ما يدل عليه في كتاب الله -عز وجل- وسنة نبيه الكريم وفقه صحابته -رضي الله عنهم أجمعين-، فاستشراف المستقبل ليس رجماً بالغيب، أو مجرد تعلق بالظنون أو التوهمات أو الخيالات المجردة التي لا نفع من ورائها، وإنما هو عبارة عن توظيف لمجموعة من المعطيات الواقعية سواء في ماضي الأمّة، والاستفادة من عبرها التي وردت بها، أم حاضرها الماثل للعيان بمختلف مكوناته وأسبابه.

وذلك حتى يمكن توقع نتائج تلك المعطيات مستقبلاً، وفق قواعد إجرائية، ومعطيات موضوعية، وتراتيب منطقية، واستنباطات واستدلالات من واقع مسألة البحث أو موضوع التحري، ثم الدخول في مرحلة تخطيط وتنظيم الأهداف المرجوة، ومتابعة تحققها لتلك المعطيات المطروحة، للوصول إلى النتيجة المتوقعة في إطار شرعي، ووفقاً لمقتضياته ومقاصده.

وهذا لا يتحقق إلا بالعمل والتغيير، وليس بالجلوس وانتظار المفاجآت وما تحمله لنا الأيام، أمام عدم استعدادنا لذلك المستقبل، وهو ما يعكس واقع العشوائية، وعدم التخطيط الذي تعيشه مجتمعاتنا؛ لضعف الدراسات التي تهتم بالمستقبل وتغيراته المتوقعة، وقصر النظر على الواقع المعاش فقط، وعدم رسم الخطط التي تعالج ذلك الواقع ومتطلباته المتوقعة بشكل يحقق لنا مستقبلاً متوائماً، ويلبي كل الاحتياجات المتجددة والمتغيرة الخاضعة لمؤثرات الزمان والمكان والمتطلبات الفعلية، بما يتحقق به مصالح العباد وفق مقتضيات الشرع الحنيف ومقاصده.

وهذا يعكس أهمية الاستشراف والتخطيط للمستقبل في النّهوض بالأمم عند الأخذ به، وتخلفها عند الابتعاد عنه، وهو ما أكده الشرع في مواضع كثيرة. والذي سوف نوضحه من خلال الآتي:

**الأدلة التي وردت في القرآن الكريم:**

( قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) ([[1]](#footnote-1)).

**وجه الدلالة:**

إن الآية جاءت في سياق حض المؤمنين على السير في الأرض، وضرورة التفكر في خلق الله –سبحانه وتعالى- والنظر إلى آياته، وبيان أن المستفيدين من خطابه هم أصحاب العقول المستنيرة القادرون على سبر أغوار هذه السنن، وحسن توظيفها في استشراف المستقبل.

قال سيد قطب في تعليقه على هذه الآية:"والقرآن الكريم يرد المسلمين هنا إلى سنن الله في الأرض. يردهم إلى الأصول التي تجري وفقها الأمور. فهم ليسوا بدعاً في الحياة ؛ فالنواميس التي تحكم الحياة جارية لا تتخلف والأمور لا تمضي جزافاً، إنما هي تتبع هذه النواميس، فإذا هم درسوها، وأدركوا مغازيها، تكشفت لهم الحكمة من وراء الأحداث، وتبينت لهم الأهداف من وراء الوقائع، واطمأنوا إلى ثبات النظام الذي تتبعه الأحداث، وإلى وجود الحكمة الكامنة وراء هذا النظام، واستشرفوا خط السير على ضوء ما كـان في ماضي الطريق، ولم يعتمدوا على مجرد كونهم مسلمين، لينـالوا النصر والتمكين: بـدون الأخذ بأسباب النصر، وفي أولها طاعة الله وطاعة الرسول"([[2]](#footnote-2)).

(لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) ([[3]](#footnote-3)).

**وجه الدلالة:**

إن الآية جاءت في سياق الاعتبار بحال الأقوام السابقين بالنظر إلى ما كانوا عليه، والابتعاد عن تكرار أفعال وأعمال سابقيهم من الكفار وإلا سيلقون نفس الجزاء والمصير، وترغيبهم في أن يعملوا أعمال المؤمنين، فيكون استشرافهم المستقبل في اعتبارهم بسنن سابقيهم.

قال ابن تيمية –رحمه الله-: "والاعتبار أَن يقرن الشيءُ بِمثْله فيعلم أَن حكمه مثل حكمه كما قال ابن عباس: هلا اعتبرتُم الأصابع بِالأَسنانِ؟ فإذَا قال تعالى: (فاعتبروا يا أولي الأبصار) ([[4]](#footnote-4)).

وقال تعالى:(لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب)، أَفاد أَن من عمل مثل أَعمالهِم جوزي مثل جزائهم؛ ليحذَر أَن يعمل مثل أعمال الكفار، وليرغب في أن يعمل مثل أعمال المؤمنين أتباع الأنبياء"([[5]](#footnote-5)).

قال تعالى: (إنا مكنا له في الأرض وأتيناه من كل شيء سببا)([[6]](#footnote-6)).

**وجه الدلالة:**

وردت الآية في ذي القرنين الذي حكم بشرع الله فدان له كل شيء، فبإتباع الأسباب التي أشار الله إليها في كتابه، وتوظيفها والأخذ بها وفق إرادة الله يتحقق له التمكين.

قال سيد قطب في هذا السياق: "النموذج الطيب للحاكم الصالح، يمكنه الله في الأرض، وييسر له الأسباب؛ فيجتاح الأرض شرقاً وغرباً؛ ولكنه لا يتجبر ولا يتكبر، ولا يطغى ولا يتبطر، ولا يتخذ من الفتوح وسيلة للغنم المادي، واستغلال الأفراد والجماعات والأوطان، ولا يعامل البلاد المفتوحة معاملة الرقيق؛ ولا يسخر أهلها في أغراضه وأطماعه... إنما ينشر العدل في كل مكان يحل به، ويساعد المتخلفين، ويدرأ عنهم العدوان دون مقابل؛ ويستخدم القوة التي يسرها الله له في التعبير والإصلاح، ودفع العدوان وإحقاق الحق"([[7]](#footnote-7)).

**الأدلة التي وردت في السنة النبوية:**

ورد عن المستقبل واستشرافه الكثير في أحاديث الرسول ، مما يؤكد حرصه على تعليم صحابته أهمية المستقبل والتخطيط في حياتهم، مما يوفر لهم الاستعداد والجاهزية الكاملة لمواجهة كل العوارض والاحتمالات الممكنة التي تطرأ بمستجدات تشكل عائقاً في مسيرتهم، مما يجعلهم مواكبين لكل عوامل التطور والتجديد والتغير.

* **استشراف الرسول للأسئلة قبل سؤالها:**

جاء عن أبي هريرة -رضي الله عنه-: "سَأَلَ رَجُلٌ النَّبِيَّ ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا نَرْكَبُ الْبَحْرَ، وَنَحْمِلُ مَعَنَا الْقَلِيلَ مِنَ الْمَاءِ، فَإِنْ تَوَضَّأْنَا بِهِ عَطِشْنَا، أَفَنَتَوَضَّأُ بِمَاءِ الْبَحْرِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ : هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ الْحِلُّ مَيْتَتُهُ"([[8]](#footnote-8)).

**وجه الدلالة:**

يظهر استشراف الرسول في نظرته المستقبلية في ارتياد صحابته ركوب البحر وهو أمر جديد عليهم، وسؤالهم عن طهارة مائه، توقع الرسول حاجتهم فيما بعد إلى السؤال عن ميتته، فأجاب عنها قبل سؤالهم له. وهذا الاستشراف يفسر مدى بعد نظر الرسول في استيعاب المتطلبات التي من الممكن أن تنشأ مستقبلاً نتيجة ورود هذا المجال حديثاً – ركوب البحر-، وما سيترتب عليه من احتياجات طبيعة هذا المجال.

* **استشراف الرسول في سبر غور نفوس أصحابه:**

جاء عن أبي ذر -رضي الله عنه-: "أن رسول الله قال: يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفًا، وَإِنِّي أُحِبُّ لَكَ مَا أُحِبُّ لِنَفْسِي، لَا تَأَمَّرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ، وَلَا تَوَلَّيَنَّ مَالَ يَتِيمٍ"([[9]](#footnote-9)).

**وجه الدلالة:**

يظهر استشراف الرسول بعدم توليته أبا ذر أي أمر من أمور الإمارة أو مسؤولية مال من أموال اليتامى، وذلك راجع إلى علمه بأصحابه ونفوسهم، وكيفية توزيع الأدوار المناسبة لكل شخصية منهم في أي مهمة أو مسؤولية يؤمر بها، فعلمه بشخصية أبي ذر وضعفه وتقواه، لا يؤهله لمثل هذه الأمور التي تتطلب صفات أخرى من القوة والشدة والحزم، مما يتحقق معه أداء تلك الوظائف على أكمل وجه.

* **استشراف الرسول لأمور تحدث في أخبار الزمان:**

جاء عن حذيفة -رضي الله عنه- أنه قال: "قام فينا رسول الله مقاماً ما ترك شيئاً يكون في مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حدث به حفظه من حفظه ونسيه من نسيه قد علمه أصحابي هؤلاء وإنها ليكون منه الشيء قد نسيته فأراه فأذكره كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه ثم إذا رآه عرفه"([[10]](#footnote-10)).

**وجه الدلالة:**

يظهر استشراف الرسول لمستقبل الدنيا من باب إطلاع الله له على الأمور الغيبية، فأخبر أصحابه بما يكون فيها إلى قيام الساعة.

**الأدلة التي وردت في فقه الصحابة:**

* **استشراف عمر بن الخطاب المستقبل بعزل خالد بن الوليد -رضي الله عنهما-:**

اتخذ الخليفة عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- قراراً بعزل خالد بن الوليد -رضي الله عنه- عن قيادة الجيوش رغم كفاءته القتالية، ودوره العظيم في تحقيق الانتصارات المتتالية، وجاء في ذلك:"لما رجع خالد ومعه أموال جزيلة من الصائفة([[11]](#footnote-11)) انتجعه([[12]](#footnote-12)) الناس يبتغون رفده ونائله، فكان ممن دخل عليه الأشعث بن قيس فأجازه بعشرة آلاف، فلما بلغ ذلك عمر كتب إلى أبي عبيدة يأمره أن يقيم خالداً، ويكشف عمامته وينزع عنه قلنسوته، ويقيده بعمامته، ويسأله عن هذه العشرة آلاف، إن كان أجازها الأشعث من ماله فهو سرف، وإن كان من مال الصائفة فهي خيانة، ثم اعزله عن عمله"([[13]](#footnote-13)).

**وجه الدلالة:**

كان موقف الفاروق -رضي الله عنه- فيه دلالة على الاستشراف والتخطيط المستقبلي، حيث كان قراره تحرزًا من الخوف من الوقوع في الفتنة مستقبلاً، بناء على معطيات وأمارات ملموسة، وتوقع نتائج مستقبلية والتي كانت أساساً لقراره بالعزل، فالانتصارات العظيمة التي تحققت على يد خالد بن الوليد -رضي الله عنه- أوقعت في نفس الفاروق الخشية من افتتان الناس بأن النصر بيد خالد -رضي الله عنه- لا بيد الله -عز وجل-، إضافة إلى ذلك خبرته المستفادة من سياسته في الحكم والإدارة ومحاسبة الولاة، وكيفية إدارة شؤون الدولة، والتي أبرزت عبقريته في التخطيط للمستقبل، والذي يؤكد أن موقفه لم يكن مبنياً على خيانة أو خصومة بينه وبين خالد بن الوليد -رضي الله عنهما-، ودلالة ذلك أنه قال:"يا خالد والله إنك عليّ لكريم، وإنك إليّ لحبيب، ولن تعاتبني بعد اليوم على شيء"([[14]](#footnote-14))، إضافة إلى ذلك: "لما مات خالد لم يوجد له إلا فرسه وغلامه وسلاحه، فقال عمر: رحم الله أبا سليمان، إن كنا لنظنه على غير هذا"([[15]](#footnote-15)).

1. ()  سورة آل عمران: الآية: رقم 137. [↑](#footnote-ref-1)
2. ()  قطب، سيد، **في ظلال القرآن**، ط17، دار الشروق، بيروت- القاهرة، 1412هـ، 1/478. [↑](#footnote-ref-2)
3. ()  سورة يوسف: الآية: رقم 111. [↑](#footnote-ref-3)
4. ()  سورة الحشر: جزء من الآية: رقم 2. [↑](#footnote-ref-4)
5. ()  ابن تيمية، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ، **مجموع الفتاوى**، **مرجع سابق،** ص48، 3/145. [↑](#footnote-ref-5)
6. ()  سورة الكهف: الآية: رقم 84. [↑](#footnote-ref-6)
7. ()  قطب، سيد، **في ظلال القرآن**، مرجع سابق، ص128، 4/2293. [↑](#footnote-ref-7)
8. ()  أخرجه أبو داود، سليمان بن الأشعث بن إسحاق، **سنن أبي داود**، مرجع سابق، ص114، 1/21، حديث رقم: 83. حديث صحيح، وثقه النسائي وذكره ابن حبان، وصححه البخاري في العلل الكبير للترمذي، وصححه الترمذي وابن خزيمة وغيرهم. [↑](#footnote-ref-8)
9. ()  أخرجه الإمام مسلم، أبو الحسن مسلم بن الحجاج، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، ص23، 3/1457، حديث رقم: 1826. [↑](#footnote-ref-9)
10. ()  أخرجه الإمام مسلم، أبو الحسن، مسلم بن الحجاج، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، ص23، 4/2217، حديث رقم: 2891. [↑](#footnote-ref-10)
11. ()  الصائفة: أَوَان الصَّيف والغزوة فِي الصَّيف وَبهَا سميت غَزْوَة الرّوم لأَنهم كَانُوا يغزون صيفا اتقاء الْبرد والثلج. مجمع اللغة العربية، **الوسيط**، مرجع سابق**،** ص62، 1/531. [↑](#footnote-ref-11)
12. ()  انتجع الْقَوْم: ذَهَبُوا لطلب الْكلأ والكلأ نجعه، وَيُقَال: انتجع فلَانا قَصده يطْلب معروفه. مجمع اللغة العربية، **المرجع السابق**، 2/903. [↑](#footnote-ref-12)
13. ()  ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر، **البداية والنهاية**، تحقيق: علي شيري، ط1، دار إحياء التراث العربي، 1408هـ، 7/92. [↑](#footnote-ref-13)
14. ()  ابن منظور، أبو الفضل، محمد بن مكرم، **مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر**، بتحقيق: روحية النحاس، رياض عبد الحميد مراد، محمد مطيع، ط1، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، 1402هـ، 1415هـ، 8/22. [↑](#footnote-ref-14)
15. ()  ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر، **البداية والنهاية**،مرجع سابق،ص133،10/141. [↑](#footnote-ref-15)